مجلة الرائد

العدد : ٢١٢ الموافق في جمادى الأولى ١٤٢٠ هجري ٩ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : العلامة الفقيه .. الشيخ مصطفى الزرقا	بقلم : د. محمد الصباغ

فجع المسلمون بوفاة عالم من أكبر علماء لمسلمين في العصر الحاضر وهو العلامة الفقيه القانوني الشاعر الشيخ مصطفى أحمد الزرقا الذي توفي عصر السبت الواقع في ١٩ من ربيع الأول عام ١٤٢٠هـ الموافق لـ ١٩٩٩/٧/٣م في مدينة الرياض .

ولد الفقيه الكبير في مدينة حلب من بلاد الشام في سنة ١٩٠٤م في أسرة عرفت بالعلم والوجاهة ، فوالده هو الشيخ أحمد الزرقا وجدّه الشيخ محمد الزرقا كان من كبار العلماء كما حدثني بذلك ناظم القدسي رحمه الله .

دخل الكتّاب وتعلم فيه القرآن الكريم ثم دخل مدرسة الضرير الابتدائية بحلب وأتم فيها دراسته الابتدائية والمتوسطة .

ثم التحق بالمدرسة الشرعية الثانوية التي تدعى « الخسروية » وأتم دراسته فيها ، هذا بالإضافة إلى دراسته في حلقات العلماء التي تلقى فيها العلوم اللغوية والشرعية ، وكان والده أحد الأساتذة الذي قرأ عليهم وأفاد من علمهم .

ودرس بعد انتهائه من المدرسة الشرعية مواد الدراسة العصرية دراسة شخصية وتقدم لامتحان الباكالوريا الأولى فاجتازه بنجاح ، ثم قدم إلى دمشق فدرس فيها البكالوريا الثانية ، إذ لم يكن في سوريا إلا هذه الثانوية وكانت تدعى « مكتب عنبر» وفيها تخرج عدد من النوابغ الكبار أمثال علي الطنطاوي وظافر القاسمي ومصطفى الزرقا .

ثم التحق بكلية الحقوق ، وجمع معها الدراسة في كلية الآداب وتخرج فيهما سنة ١٩٣٣م

ثم حصل على دبلوم الشريعة الإسلامية من كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول في مصر .

وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة ، ويجيدها قراءة وكتابة ، وله مشاركة لا بأس بها في اللغة الإنجليزية .

عمل في التدريس في المرحلة الثانوية ، فقد تولى تدريس الفقه والأدب العربي في الثانوية الشرعية التي كان تلميذاً فيها .

ثم عمل محامياً لدى المحاكم الوطنية والمحاكم المختلطة سنوات عدة ثم عين مدرساً في كلية الحقوق في الجامعة السورية في عام ١٩٤٤م فقام بتدريس مادة الحقوق المدنية ، لأن بلاد الشام كانت تحكم بقانون مجلة الأحكام العدلية ، وهو قانون مستنبط من كتب الفقه في المذهب الحنفي ، وهو ممن أتقن فقه

هذا المذهب . ثم كلف بتدريس مادة الحديث النبوي ، فقام بتدريس هذه المادة سنوات عدة . ثم كلف بتدريس بعض المواد في كلية الشريعة في الجامعة السورية ، ولما أرادت كلية الشريعة إعداد موسوعة فقهية عهدت إلى الفقيد الكبير برئاسة لجنة مشروع الموسوعة الفقهية .

ثم استعارت حكومة الكويت خدماته من جامعة دمشق عام ١٩٦٦م ليكون خبيراً قائماً على مشروع الموسوعة الفقهية ، وظل في الكويت عدة سنوات .ولما تقاعد في جامعة دمشق قام بالتدريس في كلية الشريعة في الجامعة الأردنية من عام ١٩٧١ إلى ١٩٨٩م

وقد اختير عضواً في اللجنة التي كُلفت وضع مشروع قانون الأحوال الشخصية المستمد من الشريعة الإسلامية ، وكان معه من أعضاء اللجنة العلامة الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله ، وكان ذلك في عام ١٩٥٣م

وفي عهد الوحدة بين سوريا ومصر اختير رئيساً للجنة وضع مشروع قانون الأحوال الشخصية الموحد للقطرين

وفي عام ١٩٨١ اختارته الأمانة العامة لجامعة الدول العربية خبيراً في لجنة خبراء الأمانة المذكورة لوضع مشروع القانون المدني الموحد للبلاد العربية على أساس الفقه الإسلامي .

وكانت له مشاركة كبيرة في وضع القانون المدني الأردني .

وكان عضواً في مجمع الفقه الإسلامي في مكة المكرمة . وكان عضواً في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة .

وكان عضواً لمرة أو مرتين في لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل الإسلامية وفي عام ١٩٨٣م منح جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية عن مؤلفه في النظريات الفقهية .

انتخب نائباً في مجلس النواب السوري عن مدينة حلب في دورتين تشريعيتين في عام ١٩٤٥م وعام ١٩٦١م

وقد تولى وزارة العدل ووزارة الأوقاف في الجمهورية العربية السورية مرتين في عهود دستورية

كان الشيخ الزرقا مدرساً ناجحاً متمكناً من مادته العلمية ويملك الأداة البيانية التي تعرض بها مفردات المادة .

وقد كان لي شرف التلمذة على يديه في كلية الآداب حيث درسنا مادة الحديث النبوي ، وفي كلية الحقوق عندما درسنا كتابه المدخل الفقهي ، وهذا الكتاب جهد ضخم قال فيه العلامة الحقوقي الكبير

الأستاذ عبد القادر عودة ما معناه : " إن هذا العمل لا يمكن أن يقوم به فرد إلا أن يكون الشيخ الزرقا ، بل ولا تقوى جماعة على القيام به " . ذلك لأن طبيعة علم الفقه أنه علم فروعي يعرض للمسائل الجزئية ، فجاء الأستاذ الزرقا وصاغ هذه المسائل الفروعية بنظريات فقهية محكمة .

ومن الأمور التي أبدع بها هذا العالم الكبير الموازنة بين أسلوبي القرآن والحديث ، فقرر أن الفرق عظيم بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث في طريقة البيان العربي ، فبينهما شقة واسعة ، لا يشبه أحدهما الآخر لدى أهل البصر باللغة وأساليبها وبالمأثور المألوف من بيانها قديمه وحديثه .

وإن هذا التفاوت الكبير في الأسلوبين إذا أمعن الإنسان النظر فيه وكان ذا ملكة بيانية لا يترك لديه مجالاً للشك والريبة في أن الحديث النبوي والقرآن صادران عن مصدرين مختلفين .

وكان الفقيه الكبير يحفظ قدراً هائلاً من الشعر العربي الجميل ، فهو يكاد يكون حافظاً اللزوميات لأبي العلاء المعري وكذلك سقط الزند وكان يحسن الظن بأبي العلاء .

وكان يحفظ كمية كبيرة من شعر الشعراء العباسيين والعصور المختلفة حتى شعراء العصر الحاضر .

وكان يمقت شعر التفعيلة ولا يراه شعراً .

وكان شاعر مُقِلاً ، وقد جمع في آخر حياته مجموعة من القصائد التي نظمها في مناسبات مختلفة وأصدرها في ديوان بعنوان « قوس قزح »

ومن القصائد الجميلة في هذا الديوان رثاء زوجته الثانية التي توفيت في عمان

فمن أبياتها هذه الأبيات المعبرة المترعة بالعواطف الجياشة ، قال :

ولكني بفقدك عدت طفلاً أضاع البيت إذ حل المساء

فليس لديه غير الدمع نطقٌ ولا صبرٌ لديه ولا اهتداء

وبات الكون في عينيه غولاً وليس له سوى (ماما) نداء

وأنجب من الأولاد أربعة ذكور وهم أحمد نوفل ، وأنس ، ومازن ، وعامر ، وبنتاً واحدةً هي رفيدة .

وتوفي في حياته أحمد نوفل ، ومازن ، وكنت إلى جانبه في هاتين الحادثتين الأليمتين ، وكان قمة في الصبر ، كنا نجلس معه في العزاء فكان رحمه الله هو الذي يعزينا ويقرأ لنا ما يحفظ من الأشعار

المواسية

والمزية التي برزت في شخصيته العلمية - رحمه الله - هي براعته الفقهية ، فقد كان مستوعباً لمسائل الفقه وأحكامها عند العلماء ، وكان أيضاً يعيش عصره بكل أبعاده الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ويعرف الأوضاع الطارئة التي لم تكن على عهد السلف ، كان يعرفها أتم المعرفة .

وكان يميل إلى التسهيل على الناس ، وقد يرى بعض الآراء متجهاً نحو التسهيل لا يوافقه عليه الجمّ الغفير من علماء هذا العصر .

وكان - غفر الله له - يحسن تبسيط المسألة المعقدة ، ويعرضها على الناس بأسلوب واضح فيدركونها ، وقد حدثني أنه عندما كتب كتابه « المدخل الفقهي » كان يقرأ الفقرة على زوجته التي لم يكن مستواها الثقافي عالياً ، فإن وجد أنها استوعبت مضمونها أثبتها وإلا قام بتبسيطها وتوضيحها ، يفعل ذلك في كل جملة حتى يطمئن إلى أنها أصبحت واضحة بالنسبة للناس جميعاً ، وقد أعانه على التوضيح أمران : هما تمكنه من المادة العلمية ووضوحها في ذهنه هو، وقدرته البيانية التي كانت ثمرة اطلاعه الأدبي الواسع وتمكنه من علوم العربية نحوها وصرفها وبلاغتها .

ومما يدل على إيثاره الوضوح نقده لكتب الفقه القديمة فقد قال رحمه الله : " ولكن المتون انقلبت .. إلى طريقة عامة تقليدية في تأليف الفقه ، حتى إن من يريد أن يترك له أثراً أو ذكراً علمياً لا يفكر أن يخدم العلم بمؤلف مستقلّ يعمد به إلى التجديد في أسلوب الفقه ولغته ، وفي تنقيحه وتقسيمه وترتيبه وتبويبه ، والرجوع بمسائله المشتتة في غير أبوابها ومناسباتها .. بل كان كل مؤلف متأخر يحصر جهده في وضع حاشية على شرح ، أو شرح على متن معقد ، أو يضع متناً على نسق سائر المتون الاختزالية اللغزية التي تقدمته " **[المدخل الفقهي ص:٢٠٠]**

ولذلك كانت كتابته للمسائل الفقهية في كتبه واضحة سهلة الفهم ، ولو أنك رجعت إلى قراءة هذه المسائل في الكتب القديمة لأعياك فهمها ولوجدتها غاية في التعقيد .

وكان يتقن الأمور العملية البعيدة عن العلم النظري التي قد يحتاج إليها المرء في حياته كإصلاح بعض ما يحتاج إلى الإصلاح في المنزل من أدوات وأثاث ، وقد ذكر لي الشيخ علي الطنطاوي أنه ساعد مصمّم مدافئ المازوت المستحدثة على تصميمها ، فكان ذلك المصمم كلما اعترضته عقبة أو مشكلة اتصل بالشيخ مصطفى الزرقا وسأله رأيه في حل تلك المشكلة فيدله على الحل والمخرج .

وله من النوادر في هذا المجال ما لو جمع لكان في مجلد .. فقد ذكر لي مرة خلطة الزعتر الذي يصنعه وسجلتها لما رأيت من التجديد فيها .. وهي خلطة خاصة تجعل للزعتر الذي يعده في داره عدداً من المزايا لا تتوفر في أنواع الزعتر الأخرى .

وله خبرة فريدة في أنواع المآكل وكيفية طبخها وإعدادها .

وله معرفة في الأمور الطبية هائلة ، فهو يصف أعراض المرض ويعرف كثيراً من الأدوية المناسبة .

* * *

وبعد ... ورد في الأثر الذي أرى أنه ينطبق عليه وعلى أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي وعلى العلامة عبد العزيز بن باز الذين فقدناهم في أوقات متقاربة ينطبق عليهم الأثر القائل :

" إذا مات العالم انثلمت في الإسلام ثلمة لا تُسدُّ إلى يوم القيامة "

ومعنى هذا الأثر صحيح جداً كما أوضحت ذلك مراراً ، ذلك لأنه من الصعب أن تتكرر العوامل التي تعاونت في التأثير على الإنسان وتكوينه علمياً ؛ من العوامل الوراثية ، والاستعدادات الشخصية ، والأحوال الاجتماعية ، والأوضاع الاقتصادية العامة والخاصة بالإنسان ، والمؤثرات الثقافية من كتب ومدرسين ، والأوضاع السياسية ، والمواهب الذاتية ... فما أعظمها من خسارة موت العباقرة الأفذاذ من العلماء .

وفقيدنا الكبير من العلماء الذي تعاونت عوامل عديدة في تكوينه من المستحيل أن تتكرر بحذافيرها في آخرين . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

***

ومن مؤلفات الفقيد الكبير - رحمه الله - الكتب الآتية:

١. المدخل الفقهي

٢. أحكام الأوقاف

٣. في الحديث النبوي

٤. الاستصلاح والمصالح المرسلة في الفقه الإسلامي

٥. الفعل الضار والضمان منه

٦. عقد البيع في الفقه الإسلامي

٧. نظام التأمين والرأي الشرعي فيه

٨. الفقه الإسلامي ومدارسه

٩. عظمة محمد مجمع العظمات البشرية

١٠. عقد الاستيضاع وأثره في نشاط البنوك الإسلامية

١١. التمهيد لقانون مدني إسلامي

١٢. صياغة شرعية لنظرية التعسف في استعمال الحق

١٣. قوس قزح

وغيرها

* * *

وإني لأتقدم إلى أسرة الفقيد وإلى علماء المسلمين بالتعزية سائلاً الله العلي القدير أن يعوض المسلمين الخير وإنا لله وإنا إليه راجعون .